الأفعال الكلامية غير المباشرة في كتاب سيبويه

د. صباح عبد الهادي كاظم (*)

المقدمة

عرف سيبويه الأفعال الكلامية بكل أبعادها، وكانت هذه الأبعاد والأصول متكاملة في الكتاب، وأكاد أجـزِمُ أنّه أوّلُ من اكتشـف هذه النظرية، إذ لم يكن معنيًـا في الكتاب أن يعالج اللغة، قواعدهـا النحويّة ، والصرفيـة، والصوتيّة، وإنَّما بحث ببصيرة ثاقبـة، ونظرٍ دقيقٍ مبادئ المعنى التداولي، إذ كان ينظر إلى اللغة بوصفها كائنًا يؤدي حاجات المجتمع في سياقاتٍ كثيرة، وهذه الحاجات تتطلّب سياقات كلاميّة متنوّعة لِتحقّقَ أهدافًا يرومها المتكلم والمتلقّي.

ولذلك سـعى الشـيخ نحو معرفة أنواع الاستعمالات الكلاميّة، وتطويعها، وتطوير أفكار المتخاطبين بما يتوافق مع مقتضيات السياق، ويكفل التكيُّف مع تنوّعاته .

وقـد بحث سـيبويه في مواضع كثيرة بيَّن فيها أنّ ما خالـف الأصل في نظْمِ الكلام اقتضى غير الظاهر، بعبارة أخرى أنّه أراد أنَّ من الكلام يُطلقُ ويراد به غير الظاهر، ولهذا تراه عقد أبوابًا تبحث في مخالفة ظاهر اللفظ معناه، فمن ذلك أنْ يأتي الكلام على مذهب الاستفهام، وهو يراد به التوبيخ والتبصير، أو قد ينتظم الكلام بصيغة الأمر، لكنه تجري فيه معان غير طلب الإيجاد، وقد يُبنى الكلام على مبدأ الخبر، واراد به غير ذلك.

(*) الجامعة المستنصرية/ كلية التربية .

ولكـي أثبت حقيقة ما ذكرته ارتأيتُ أنْ أبحث الأفعـال الكلاميّة غـير المبـاشرة في مدوّنة قديمة، يـكاد الناظر فيها أنْ يجزمَ بحكمٍ أنَّ ما جاء فيها يفوق نظريات الغرب الحديثة في هذا المجال.

توطئة :

تبحـث نظريـة الأفعال الكلاميـة غير المباشرة مسألة الاختلاف بين معنى الكلام، ومعنى المتكلِّم، أيْ بـين معنـى الدلالـة الحرفيـة، والمعنـى الذي يقصده المتكلم.

ومـا ذكـره سـيبويه عـن الفرق بـين المعاني الصريحة، والمعاني ذات المغزى غير المباشر يمكن عـدهُ الانطلاقـة الأُولى، التـي أقرّت بـذرة تداولية الأفعـال الكلامية غير المبـاشرة؛ إذ كان يعتقد أنّ الظروف المحيطة بالكلام تُعدّ الركيزة الأساسـية، التـي يتـوكّأ عليهـا المخاطـب في معرفـة معنـى المتكلّم[١].

وهذا ما ذكره، واعتقدَ به [أوستين] من المحدثين، إذ قال: "إنّ ظروف النطق بالعبارة هو أهمّ مُعين لنا عـلى معرفة الغرض منهـا[٢]". وتابعه في ذلك تلميذه [سـيرل]، وقد أسـهم بحثه في هذا المجال في إيجـاد تصنيف ثنائي للأفعـال الكلامية، تمثّل الأوّل في [الأفعـال الإنجازية المباشرة، وكان الثاني لـ[الأفعال الإنجازية غير المباشرة].

وخلـص بعـد بحـث طويـل إلى أنّ الأفعـال الكلاميـة لا تُنجـزُ كلُّها في تراكيـب يكون معناها الحـرفي مطابقًـا لمعنـى المتكلّـم المضمـر خلـف الظروف المحيطة بالـكلام؛ ولهذا كان لزامًا علينا أن نُفـرِّق بـين معنى الكلام ومعنـى المتكلّم الذي يريده[٣]. ومِن ثَمَّ انطلقت نظرية سـيرل من مبدأ مفـاده: لا يقصد المتكلِّم ما يقوله فحسـب، وإنّما يتعدّى قصده إلى ما هو أكثر من ذلك.

فالأفعـال الإنجازيـة غـير المبـاشرة لا يـدلّ نظمهـا التركيبي عـلى زيادة في المعنـى الإنجازي الحرفي، وإنّما الزيادة فيما أسماه [سيرل] [معنى المتكلّم[٤].

فالغـرض في بناء هذه الأفعال هو: كيف يقول المتكلم شـيئًا ويعني شـيئًا آخر؛ وكيف يتسـنى للمخاطب أن يسمع كلامًا له معنى لغويّ، ويُفهَمُ منـه معنى آخر، أضمره المتكلّم، وأظهَرتْهُ ظروف الكلام المحيطة[٥]؟

وقد نقل لنا سيبويه قسمًا من النصوص يُنبئكَ فيهـا، أنّ هذا المُشـكِل يمكن حلُّه بمبدأ الاشـتراك بين المتكلِّم والمخاطب في اللغة، والظروف المحيطة بالاسـتعمال[٦]. وهـو ما أسـماه سـيرل بـ[مبدأ التعـاون الحواري]، أو ما سـمّاه: باسـتراتيجية الاسـتنتاج، التي تُمكِّن السـامع مـن الوصول إلى المعنى غير المباشر[٧].

جـاء في الكتـاب في بيـان سـيبويه أنّ هنـاك تعبـيرات تعتمد اعتمادًا كاملًا على السـياق، الذي ترد فيـه، ولا يمكن إنتاجها، أو تفسـيرها بمعزلٍ عن سـياقها، فمن ذلك تفسـيره كلمة (سلامًا) في كلام العـرب، والقرآن الكريم ، إذ قال: "وزعم أبو الخطاب أنَّ مثلَهُ قولك للرجلِ: سلامًا، تريد تسلّمًا منك، كمـا قلت: براءةً منك، تريـد لا ألتبس بشيءٍ من أمرك، وزعم أنّ أبا ربيعةَ كان يقول: إذا لقيتَ فلانا فُقْل " له " سَـلاماً. فزعم أنه سـأله ففَسَّره

(١) يُنظر مثلًا: الكتاب: ١/ ٥٥، ٧٦، ٢١١، ٢١٢، ٢٢٤، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٨٠، ٢٨٢، ٢٩٠، ٢٩١.

(٢) نظرية أفعال الكلام العامة: ٩٣.

(٣) يُنظر: العقل واللغة والمجتمع: ٢٠٦.

(٤) يُنظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٨٢.

(٥) يُنظر: المصدر نفسه: ٨٢.

(٦) يُنظر مثلًا: الكتاب: ١/ ٢٢٤، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٨٠، ٢٨٢.

(٧) يُنظر: الاقتفاء وانسجام الخطاب: ٤١٤.

له بمعنى براءةً منك."[٨]. واستطرد سيبويه في إيضاح هذا الأمر، إذ قال: "وزعَمَ أنّ هذه الآية: {وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا} [٩]"بمنزلة ذلك؛ لأنّ الآية فيما زعَم مكيّة، ولم يُؤمَرِ المسلمون يومئذٍ أن يسلّموا على المشركين، ولكنّه على قولك: براءةً منكم وتسلّمًا، لا خيرَ بيننا وبينكم ولا شرَّ[١٠]".

وجاء في شرح السيرافي بما يوضِّح هذه المسألة إيضاحًا لا لَبْسَ فيه بأنّ [سلامًا] الواردة في قوله تعالى المذكور آنفًا لا يمكن تفسيرها في هدى المعنى الحرفي، وإنّما يجب إخضاع هذا الكلام للظروف المحيطة في إنتاجه، إذ قال: "معناه: براءة منكم؛ لأنّ هذه الآية في سورة الفرقان، وهي سورة مكيّة، والسلام في سورة النساء، وهي مدنيّة، ولم يُؤمر المسلمون بمكّة أن يسلّموا على المشركين، وإنّما هذا على معنى براءة منكم وتسلّمًا، لا خيرَ بيننا وبينكم ولا شرَ"[١١]. وكأنّ سيبويه يُشير في هذا النّص إلى أنّ القوّة الإنجازية للأفعال ذات الدلالة الحرفية تظلّ ملازمة لها في مختلف المقامات. أمّا الأفعال الإنجازية غير المباشرة فمعناها موكولٌ إلى المقام الذي تُنتَجُ فيه، لا تظهر قوتها الإنجازية إلّا فيه.

فهو يرى أنّ القوة الإنجازية لِلَفظِ [سلامًا] لا يُتَوصَّلُ إليها إلّا من خلال عمليات ذهنية استدلالية، إذ لم يكن القصْدُ بالنّص المُنزل، والنّص الذي نقله سيبويه، الوارد فيهما لفظ [سلامًا] التحية؛ ذلك لأنّ البنية العميقة التي قدّرها سيبويه يمليها السياق الخارجي، بمعنى أنّه كان من اليسير تقديرها؛ بنحو: نُسلّم عليهم سلامًا...، ولكن السياق الخارجي جعل الفعل المقدّر، والاسم المنصوب يأخذان دلالة المناسبة الزمنية للخطاب مع الكافرين، وهو أنّ سلامًا بمعنى براءةً، لا بمعنى التحية[١٢].

وقد لاحظ سيبويه في كثيرٍ من الأحوال أنّ معنى الكلام إذا رُوعي ارتباطه بمقامات إنجازه، لا ينحصر فيما تدلّ عليه صيغه الصورية من استفهامٍ، وأمرٍ، ونهي، ونداءٍ، وخبرٍ، إلى غير ذلك من الأساليب الكلامية.

وهذا يعني أنّ صرف الكلام إلى معناه الحرفي يصبح متعذّرًا إذا اكتُفِيَ بمعلومات الصيغة وحدها.

ويمكن بيان ذلك من خلال عرضٍ لِما وردَ في الكتاب من تحليلات لظاهرة الخروج من مقتضى الظاهر إلى معانٍ يقتضيها المقام:

أولًا: الأفعال الكلامية المنجزة المتولّدة عن الاستفهام:

والاستفهام عند سيبويه: هو طلب الفهم من المخاطب "أمرًا لمْ يستقرّ عند السائل"[١٣]. وفي هذا إشارة إلى مفهوم الاستفهام الحقيقي، الذي يطلب فيه السائل من مخاطبه جوابًا عن شيءٍ ليس له علمٌ فيه، أو هو جاهلٌ بحقيقته. ولا يعدو الجواب عنه أن يكون بحسب السؤال ليس فيه انحراف عمَّا وُضِعَ له الاستفهام من مقتضى. ويسمّى الفعل الناتج عن هذا الضرب من الكلام بالفعل الكلامي المباشر.

وهذا المعنى لا يكون قياسًا مطّردًا في الأُسلوب الاستفهامي، فقد ترى أنّ السائل يسأل عن أمرٍ هو عالمٌ به، وهٰهنا ليس للمتلقي بُدٌّ من حمل الكلام على معنى آخر غير متضمّن في السؤال

(٨) الكتاب: ١/ ٣٢٤.

(٩) سورة الفرقان، الآية: ٦٣.

(١٠) الكتاب: ١/ ٣٢٥.

(١١) شرح كتاب سيبويه: ٢/ ٢١٧.

(١٢) الإشاريات في كتاب سيبويه: ٥.

(١٣) الكتاب: ١/ ٩٩.

حرفيًّا، ويمكن معرفتــه وتعيينه من خلال المقام الذي ورد فيه السؤال.

انظر إلى قول سيبويه وهو يفسّر قوله تعالى: {أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِٱلْبَنِينَ}[١٤]: "فقد علم النبيّ –صلى الله عليه وآله وسلم- والمسلمون أنّ اللــه عزّ وجلّ لــم يتّخذ ولــدًا، ولكنّه جاء على حرف الاســتفهام، ليُبــصَّرُوا ضلالتهم"[١٥]. وهذا عين ما قال به المفسّرون بعد ســيبويه، فقد ذكروا أنّ هذا الاســتفهام جاء إنكارًا، وتوبيخًا، وتجهيلًا لهم وتعجيبًا من شأنهم، حيث جعلوا لله من الأبناء البنــات مــن دون الذكور، وهو جنسٌ أقــلّ منزلةً عندهم، وفي تقديرهــم[١٦]. فـ"كأنه قيل: هَبُوا أنّ إضافــة اتخاذ الولــد إليه – تعــالى- جائزة فرضًا وتمثيلًا، أَمَا تســتحيون من الشــطط في القسمة؟ ومــن ادّعائكم أنْ آثركم على نفســه بخير الجزأين وأعلاهما، وترك له شرَّهما وأدناهما "[١٧].

ولهــذا لم يكتفِ ســيبويه بما ذكــره في النص الســابق من تفسير، فأردف قائلًا، ليوضّح تفسير قوله تعــالى بأوضح بيــان، إذ قــال: "ألا ترى أنّ الرجل يقول للرجل: لسعادة أحبّ إليك أمِ الشقاء؟ وقد علم أن الســعادة أحبُّ إليه من الشــقاء، وأنّ المسؤول سيقول: الســعادة، ولكنّه أراد أن يبصِّر صاحبه، وأن يُعلِمَه[١٨]".

فالفعــل الكلامــي المتضمّــن في الآيــة المباركة، ونصّ سيبويه الذي دار في فلك الآية هو التبصير، وهو فعل كلامي غير مباشر متولِّد عن الاستفهام؛ لأنّــه قــد ورد في مقــامٍ مناقضٍ له، فهــو مقام لا يقتضي الاســتخبار؛ لأنَّ المســؤول عنه معلوم عند الســائل، وبذلك يكون علم السائل به قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي للاســتفهام؛ ولهذا تجد متلقــي الخطاب يتمكن من تعيين الفعل المتضمّن في القــول من خلال اســتحضار مقــام الخطاب، وملاحظة العلاقة الرابطة بين طرفيه[١٩].

فسيبويه يرى أنّ الأفعال الكلامية غير المباشرة تتمثل في الأقوال المخالفة في دلالتها لمقتضى الظاهر، وهي أفعال ســياقية لا يُدرَك معناها إلّا من خلال القرائــن الســياقية والحالية، وأَضْرُب الاســتدلال العقلي. وهــذا يؤدي إلى نتيجة مهمــة مفادها: أنّ مركزية الســياق هي التي تمنــح الخطاب دلالته للتعبير عن القصد المُراد[٢٠].

وينقــل لنــا ســيبويه كلامًا ظاهــره مبنيٌّ على حــرف الاســتفهام، ولكــنّ قوّته الإنجازيــة تأبى ذلك؛ لأنّ السياق يمنع أن يجري معنى الكلام على مقتضى الظاهــر، ومن ثَمَّ تؤذن القــوّة الإنجازية غير المبــاشرة المتضمّنة في الكلام أن يظهر وجهها في معنى المتكلّم. جاء في الكتاب: "وأمّا ما ينتصب في الاســتفهام من هذا الباب فقولك: أقيامًا يافلانُ الناسُ قعودٌ، وأجلوسًــا والناسُ يعــدون، لا يريد أن يخــبر أنّــه يجلــس، ولا أنّه قد جلــس وانقضى جلوســه، ولكنّه يُخبر أنّــه في تلك الحال في جلوس وفي قيام"[٢١].

وقد زاد الســيرافي كلام ســيبويه وضوحًــا وبيانًا، إذ قــال: "وهــذا الــكلام يقوله الإنســان عند فعلٍ يشــاهده ممّا ينكر عليه مــن أجل شيء آخر، كأنه إذا قال: أقيامًا والناس قعودٌ فقد أنكر عليه القيام مــن أجل قعود النــاس، وأنكر الجلــوس من أجل

(١٤) سورة الزخرف، الآية: ١٦.
(١٥) الكتاب: ٣/١٧٣.
(١٦) يُنظر مثلًا: تفسير الكشّاف: ٤/٢٤١، وتفسير البغوي: ٧/٢٠٨، والتحرير والتنوير: ٢٥/١٧-١٧٨.
(١٧) تفسير الكشّاف: ٤/٢٤١.
(١٨) الكتاب: ٣/١٧٣.
(١٩) يُنظر: استراتيجية الخطاب: ٣٨٤.
(٢٠) يُنظر: دراسة الأفعال الكلامية في القرآن: ١٩.
(٢١) الكتاب: ١/٣٣٨.

فرارهم توبيخًا له على ذلك[٢٢]".

فأنت ترى أنّ الخطاب مبدوء بحرف الاستفهام، ولم يكن الغرض فيه كما أشار سيبويه أن يجيب المتلقي بحرف التصديق نعم، أو لا، وإنّما أرد توجيهه لفعل عمليّ، يحفّزه إليه، فاستعمال الاستفهام في هذا المقام يُعدُّ من الآليات اللغوية التوجيهية التي يسعى المتكلم فيها إلى لفت نظر المتلقي، ثم السيطرة على ذهنه، وتسيير الخطاب نحو ما يريده[٢٣].

ويزيدنا سيبويه إيضاحًا وبيانًا في الفعل الكلامي المنجز، والمُراد من الاستفهام في النص السابق حين نقل لنا قول الراجز العجاج: أَطَرَبًا وَأَنْتَ قِنَّسْرِيُّ[٢٤]، فذكر أنّه لم يرد من مخاطبه أن يجيبه أو يخبره عن عمله هذا في مضيّ ولا استقبال، "وإنّما أراد أَتطرِبُ، أي أنت في حال طرب؟[٢٥]". وأنت شيخٌ كبير، قد بلغتَ من العُمر ما بلغت توبيخًا له، وإنكارًا للطرب في هذه الحال.

ثانيًا: الأفعال الكلامية المنجزة المتولّدة عن الأمر:

لم تفت نباهة الشيخ على طول الكتاب وعرضه أن يذكر أنّ للعلاقة بين المتكلم والمخاطب، والمعرفة اللغوية وغير اللغوية المشتركة بينهما أثرًا في بناء الخطاب، ومن ثَمَّ صارت هذه العلاقة من أبرز العناصر السياقية أثرًا في تحديد استراتيجية الخطاب المناسبة واختيارها؛ لأنّها تُعدّ محدّدًا سياقيًا له أثره في إنجاح عملية التواصل[٢٦].

وتتعدّد طرق بناء الكلام بتعدّد الظروف المحيطة به. فما يكون من الكلام مناسبًا في سياقٍ بعينه، قد لا يكون كذلك في سياقٍ غيره، ولهذا فإنّ تغيُّر بعض عناصر الكلام يستتبعُ تغيُّرًا في أُسلوب بناء الكلام المنتقى لتحقيق الغرض. فلا ينحصرُ بناء الكلام في الإسناد الفعلي في استعمال أُسلوبٍ واحدٍ كما أنّه ليس لك أن تجريه بالطريقة الإنجازية المباشرة.

والأمر عند سيبويه: بنية تستدعي الفعل، أو قولٌ ينبئ عن استدعاء الفعل من جهة غيرك على جهة الاستعلاء[٢٧].

وقد تخرج صيغة الأمر عمّا وُضِعَت له في اللغة، فتجري فيها معانٍ غير طلب الإيجاد. فالأمر إذن ليس لغويًا بحتًا، وإنّما هو لغويّ تداولي، أي ليس المعيارُ بتحديد منزلة المتكلم من المخاطب، وإنّما بتحديد موقف المتكلم من المخاطب، وغرضه ومقصده، وما يكون مع ذلك من المقامات؛ لأنّ الكلام على وفق مستوى سلطة المتكلم بالنسبة إلى رتبة المخاطب يُفهمُ كما تُفهم الأفعال اللغوية المباشرة، ليس به حاجة إلى عمليات ذهنية استدلالية، بخلاف الأفعال الكلامية غير المباشرة، التي تستند إلى الإلمام بالظروف المحيطة بالكلام، ومعرفة قصد المتكلم بالنظر إلى اشتراك طرفَي الخطاب في معرفة اللغة وقواعدها[٢٨].

جاء في الكتاب في "باب ما جرى من الأمر... على إضمار الفعل المستعمل إظهاره إذا علمتَ أنّ الرجلَ مُستغنٍ عن لفظكَ بالفعل، وذلك قولك: زيدًا، وعمرًا، ورأسَه. وذلك أنّك رأيتَ رجلًا يضربُ، أو يشتمُ، أو يقتلُ، فاكتفيت بما هو فيه من عمله أنْ تلفظ له بعمله، فقلتَ: زيدًا، أي أوقع عملك بزيد. أو رأيتَ رجلًا يقول: أضرِبُ شرَّ الناسِ فقلتَ: زيدًا... استغنيتَ عن الفعل بعمله

(٢٢) شرح كتاب سيبويه: ٢/٢٢٨.
(٢٣) استراتيجية الخطاب: ٣٥٢.
(٢٤) ديوان العجاج: ١/ ٤٨٠
(٢٥) الكتاب: ١/٣٣٩.
(٢٦) يُنظر: استراتيجية الخطاب: ٤٨.
(٢٧) يُنظر: الكتاب: ١/١٢، ١٤، ٣/١٠٠، ٥١١، ويُنظر: الطراز: ٣/١٥٥.
(٢٨) يُنظر: استراتيجية الخطاب: ٣٤٢.

أنّه مستخبرٌ. فعلى هذا يجوز هذا وما أشبهه[٢٩]".

فالمنصوبات [زيدًا، أو عمرًا، أو رأسَه] في هذه المُثُل قد تلبَّسَ فيها معنى الأمر؛ لأنّها أدّتْ وقامتْ مقام الفعل وفاعله، وإنّما قامت مقامه؛ لأنّه أُريدَ بها سرعة إنجاز الفعل.

والذي سوَّغ هذا الإضمار عِلْمُ المتكلم بأنّ المخاطب قد فَهِمَ ما يُراد منه فعله. ومَرَدُّ ذلك أنّ للسياق أثرًا كبيرًا في تعيين المقصود من الكلام ومراده، لأنّ للظروف المحيطة بالكلام، ومقامه قرائن، وعلاماتٍ لا تظهر إلّا في سياقها، الذي أجاز أن يقوم الخطاب على عنصر واحد.

جاء في التكوثر العقلي: "إن القول الطبيعي مجرّدًا عن مقامه تصير محامله كثيرة، ولا يتعيّن واحدٌ منها إلّا بتعيين المقام[٣٠]". وقد بيَّن السيرافي هذا الأمر بأوضح بيان في حديثه عن أوجه الإضمار الثلاثة، التي تدور بين وجوب الإضمار، وجواز الإضمار والإظهار، ومنع الإضمار، فقال: "... فأمّا مالا يجوز فيه الإضمار لعاملٍ فأنْ تقول: مبتدئًا: زيدًا من غير سبب نحوي، ولا حال حاضرة دالة على معنى، وأنت تريد: اضربْ زيدًا، وغيره من الأفعال؛ لأنّك إذا أضمرته لم يُعْلَمْ أنّه: أكرِمْ زيدًا، أو اشتِمْ زيدًا، أو غير ذلك[٣١]".

فأنت ترى أنّ السياق المقامي يقدّم للمتلقي العوامل، أو المحددات التي تسهم في تحديد معنى الكلام، والمقامات بوصفها سياقًا تُعدُّ صنفًا متأصِّلًا في المحددات الاجتماعية.

إذن فقد أدرك سيبويه في الكتاب كما أدرك أوستين، وسيرل من بعدُ أنّه لم يعد هناك جُمل وصفية تدلّ على معنى ثابت من دون أن تكون منطوقات أدائية تدور في فلك السياق الاجتماعي، إذ تبيّن في مراحل متأخرة من نظرية أوستين أنّ كلّ الجُمل تنشأ ليكون لها قوّة تُسمّى القوّة الإنجازية؛ لذلك ألحَّ على أثر العرف الاجتماعي لإنتاج اللغة من المتكلم[٣٢].

ويستعين سيبويه في صيرورة مبدأ [التزجية[٣٣]، وتقدير الفعل المضمر بقرينة المقام والحال الحاضرة، إذ يرى أنّ التتابعات اللغوية تكتسب معانيها من خلال علاقتها بسياقها الخارجي، ويتضمن هذا السياق عالم الأشياء، والأحداث التي ترجع إليها التعبيرات اللغوية. ويتمُّ الانتقال من المعنى الدلالي إلى المعنى التداولي عندما نُدرِكُ أنّ المتكلم والمخاطب، وموقع الحدث الزماني والمكاني تعدّ دلائل على سياق الحال الحاضرة[٣٤]. فمن ذلك ما جاء في تفسير سيبويه للإضمار، والفعل الكلامي غير المباشر في قوله تعالى: {وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ}[٣٥] "ومما ينتصب في هذا الباب على إضمار الفعل المتروك إظهاره: {انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ}... وحَسْبُك خيراً لك إذا كنت تأمر...، وإنّما نصبتَ خيرًا لك...، لأنّك حين قلت: انتهِ فأنت تريد أن تخرجه من أمر وتُدخله في آخر[٣٦]".

وزاد الخليل في محاورته سيبويه تفسير النّص القرآني وضوحًا وبيانًا، إذ قال: "كأنك تحمله على ذلك المعنى، كأنك قلت: انتهِ وادخل فيما هو خيرٌ لك، فنصبته لأنك قد عرفت أنّك إذا قلت له: انتهِ، أنّك تحمله على أمر آخر، فلذلك انتصب، وحذفوا الفعل لكثرة استعمالهم إيّاه في الكلام، ولِعلم المخاطب أنّه محمول على أمرٍ حين قال له: انتهِ، فصارَ بدلًا من قوله: ائتِ خيرًا لك، وادخل فيما

(٢٩) الكتاب: ١/٢٥٣.

(٣٠) التكوثر العقلي: ٤٥.

(٣١) شرح كتاب سيبويه: ٢/١٥٤.

(٣٢) يُنظر: استراتيجيات الخطاب: ٤٣.

(٣٣) يُنظر: الكتاب: ١/٣٣٠، ٣٤١، ٣٤٩.

(٣٤) يُنظر: استراتيجيات الخطاب: ٤٣.

(٣٥) سورة النساء، الآية: ١٧١.

(٣٦) الكتاب: ١/٢٨٢، ٢٨٣.

هو خيرٌ لك[٣٧]".

فقد بدا واضحًا مما ذكره الخليل وسيبويه أنّهما يُشيران إلى أهمية السياق في تفسير الفعل الكلامي المنجز في النّص القرآني.

فقد فهم سيبويه أنّ النّص القرآني لا تكفي دلالته الحرفية في إيصال المعنى المقصود للمتلقي، لذا نظر في تفسيره إلى ما يحمله النّص في جنباته من معلومات ناقصة، لا تكملُ إلّا فيما يحمله السياق من قرائن تُسفِرُ عن وجه المعنى، وتُبدِي صورته واضحةً.

فالأمر بالانتهاء في النّص القرآني السابق لم يكن كافيًا في تحقيق مبدأ التزجية، ومعنى التزجية[٣٨] عند سيبويه: هو نقلُ الشيء من حالٍ إلى حال. أي لم يُقصَد في النّص بفعل الأمر [انتهوا] الانتهاء عن معنى التثليث في أمر التوحيد فحسب كما فَهِمَ قسمٌ من المفسرين[٣٩]، وإنّما قَصَدَ أمرَهم بالانتهاء عن شِرْكِهم، وكفرهم، وحَملِهم على الدخول في أمرٍ ينقذهم مما هم فيه من التيه والضلال. وهذا ما فهمه منه جُلّ المفسرين.

جاء في زاد المسير في تفسير وجه النصب في [خيرًا] في قوله: {انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ}[٤٠] "قال الزجاج عن الخليل وجميع البصريين: إنَّه منصوب بالحمل على معناه، لأنَّك إذا قلت: انتهِ خيرًا لك، وأنت تدفعه عن أمرٍ فتدخله في غيره، كان المعنى: انتهِ وأتِ خيرًا لك، وادخل في ما هو خيرٌ لك[٤١]".

ثالثًا: الأفعال الكلامية المنجزة المتولّدة عن الخبر:

يرى سيبويه أنّ الوحدة اللغوية الواحدة، أو الجملة الواحدة قد يكون لها معنيان متناقضان من دون أن تختلف الكلمة في تضامّها الجُملي، وإنّما الحال، أو السياق المقامي قد تغيّر. فقد يقول المتكلم لمخاطبه: اسْهَرِ الليلَ، ولكنَّه لا يقصد المعنى الحرفي للكلام، وإنما يحثّه على الكفّ عن السّهر، ليتسنّى له أداء عمله.

فالمعنى التداولي هٰهنا قد أقصى المعنى الحرفي؛ لأنّه لم يكن قادرًا على استيفاء المعنى المقصود من الكلام، ولهذا كانت الوحدات اللغوية خاضعةً لسياق المقام، والحال التي قيل فيها الكلام، لأنّه هيّأ المحدّدات التي تسهم في إنتاج معاني الكلام[٤٢]. ومثل هذا كثير في أفصح الكلام، وكذلك الشعر العربي، فمن ذلك قوله تعالى في سورة يوسف على لسان سيدنا يعقوب –عليه السلام– وهو يُحدّثُ بنيه بعد فقده ولده النبي يوسف – عليه لسلام–: {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ}[٤٣]، وجاء في الشعر العربي[٤٤]:

يَشْكُو إِلَيَّ جَمَلِي طُوْلَ السُّرَى .....
..... صَبْرٌ جَمِيْلٌ فَكِلَانَا مُبْتَلَى

فالتركيبان قد نُظِمَا على وفق مستوى نحويّ واحد، فضلًا عن أنّهما جاءا بوحدات لغوية واحدة، ولكنّ سيبويه قد فرّق بينهما، بل مازَ بينَ التعبيرين من جهة المعنى التداولي؛ لأنّ المقام الذي قيلَ فيه الشاهد الشعري غير المقام الذي جاء فيه النّص المُنْزَل. فقد رأى سيبويه أنّ المعنى الحرفي قد تحكّم في مكوّنات هذا التركيب، وفرض نفسه

(٣٧) المصدر نفسه: ١/٢٨٣، ٢٨٤.
(٣٨) يُنظر: الكتاب: ١/٣٤١، ٣٤٩.
(٣٩) يُنظر: تفسير البغوي: ٢/٣١٥، وتفسير الطبري: ٩/٤٢٣، والتحرير والتنوير: ٦/٤٩، ٥٠.
(٤٠) سورة النساء، الآية: ١٧١.
(٤١) يُنظر: زاد المسير في علم التفسير: ١/٥٠٠.
(٤٢) يُنظر: الأُسس الأبستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه: ٣٠٧.
(٤٣) سورة يوسف، الآية: ١٨.
(٤٤) الكتاب: ١/٣٢١.

عليه، فحكَمَ على هذا البناء بالجواز النحوي الدلالي؛ لأنّه أفاد معنى عَقَلَهُ المخاطب. فليس الصبر هٰهنا نائبًا مناب فعل الأمر، ومن ثَمَّ عُدِلَ به عن النصب إلى الرفع للدلالة على الثبات والدوام[٤٥]، إذ ليس المقصود هنا إحداث معنى الصبر، وإنما المقصود أمري صَبرٌ لا شكوى فيه إلى الخَلْق، ولهذا قيل: لو أمرهم بالصبر لكان الوجه النصب[٤٦]، فلم يعْدُ أن يكون الفعل المنجز في قوله تعالى في سورة يوسف أن يكون فعلًا إنجازيًا مباشرًا في هدى الدلالة المقصودة من الكلام.

وهذا بخلاف القصد الذي أُريدَ في قول الشاعر: [يشكو إليَّ جملي...]، إذ لم يكن السياق هٰهنا مبنيًّا على الإخبار، بإرادة الثبات والدوام؛ لأنّ الشاعر بنى كلامه –وهو يصوّرُ شكوى جَمَله من طول السُّرى- على إحداث معنى الأمر بحثِّ جَمَلِه على الصبر، أو أمره بالتصبُّر على مصاعب السفر، والأمر لا يكون إلّا بالفعل.

قال سيبويه وهو يُصوّر الوجه الإعرابي المختار في قول الشاعر: [صبرٌ جميلٌ] بحسب مقتضيات المعنى التداولي: "والنّصب أكثر وأجود؛ لأنّه يأمره[٤٧]".

فأنت ترى أنّ سياق الحال الذي ورد فيه الشاهد الشعري، أو مقامه قد أذِنَ بالعدول عن المعنى الحرفي إلى المعنى التداولي الذي أبرزه وأسفر عن وجهه السياق الذي ورد فيه. فالاشتراك في البناء اللغوي والإعرابي لم يكن واحدًا في المعنى؛ لأنّ المعنى عند سيبويه لا ينكشف من خلال البناء اللغوي للكلام، وإنّما يتّضح من تسييق الوحدة اللغوية، أي وضعها في سياقات مختلفة.

ولم يكن سيبويه ينظر إلى اللغة بوصفها لغة سكونية، وإنّما بوصفها لغة حيّة، تتنوّع أساليبها في الاستعمال بين كلام يجري على الحقيقة، وكلام يجري على الاتّساع، والمجاز؛ لأنّ التوسّع ضربٌ من ضروب التصرُّف في التعبير. ولهذا تتجلّى شجاعة المتكلم العربي في إجراء الكلام على التقديم والتأخير والإضمار والتقدير، والاتساع والإيجاز والاختصار، والحمل على المعنى[٤٨].

ولهذا يُعَدُّ سيبويه أول مَن وضعَ ما يمكن أنْ نسمّيه تداولية الاتّساع والتجوُّز، وقد جعل هذه التداولية ركنًا أساسيًّا اعتمده في تفسير الكلام، وتوجيه معناه في غير موضع في الكتاب. ولم تَفُت فِطنة الشيخ أنْ يُنبِّه على حضور المخاطب في هذا المبدأ، كلّ ذلك ليؤكّد أنّ اللغة قادرة على التطوّر، والتنقّل من أُسلوبٍ إلى آخر بحسب مقتضيات المعنى، "وليقول بطريقة غير مباشرة بأنّ مستعمل اللغة له من حقوق التصرّف فيها ما لا يملك النحوي معه القدرة على تقييده وتتبّعه، واستقصاء أفراد كلامه. فهو، أي المتكلم دائم التصرّف في الألفاظ خدمةً لما يقصده من المعاني، التي تتنوّع بحسب الأحوال والمقامات، وسياقات التخاطب[٤٩]".

فمن ذلك ما جاء في الكتاب في "باب استعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى لاتّساعهم في الكلام، والإيجاز والاختصار... ومن ذلك أن تقول: كمْ وُلِدَ له؟ فيقول ستّون عامًا. فالمعنى وُلِدَ له الأولادُ، ووُلِدَ له الولد ستين عامًا، ولكنّه اتّسعَ وأوجَزَ[٥٠]". فالمتكلِّم كما ترى بنى كلامه على الاتِّساع والإيجاز، وقدَّم للمخاطب فعلًا إنجازيًا مباشرًا ، ولكنَّه

(٤٥) ينظر: التحرير والتنوير:١٢/ ٢٣٩

(٤٦) زاد المسير في علم التفسير: ٢/ ٤٢٠

(٤٧) الكتاب:١/ ٣٢١

(٤٨) يُنظر الكتاب:١/ ٣٤، ٤٥، ٨٠، ٢١١، ٢١٢، ٢٢٢، ٢٥٣ ٢٥٤ ٢٥٥، والتوسع في كتاب سيبويه : ٩

(٤٩) المصدر نفسه: ٣٨٢، ٣٨٣.

(٥٠) الكتاب: ١/ ٢١١.

أبــى أنْ يقبــل هذا المعنــى؛ لأنَّه لم يــأتِ على وفق المشــتركات اللغويــة بين طرفي الخطــاب، ؛ لأنّ في الكلام اتّســاعًا وإيجازًا، ، إذ المعنى الحرفي للجملة الخبرية: وُلِدَ له ســتّون عامًا. فلمَّا ظهر له أنَّ هذا لا يكون لأنّ السنين ليست بمولود تبادر إلى ذهنه معنى آخــر لم يكن بارزًا في ظاهــر اللفظ، أنتجَهُ القصــدُ من خــلال اســتدلال ذهنيّ بإعــادة بناء إســناد الكلام، فانكشــف له المعنــى المقصود من خلال الفعل الإنجازي غير المباشر بأنّ لفظ الأولاد للأعوام، "والمعنى للأولاد في الأعوام[٥١]".أي وُلِدَ له الأولادُ في ستينَ عامًا .

ويمضي سيبويه في تصوير إجراء العرب كلامهم على الاتّســاع لِعلم المخاطب بالمعنى، فينقل لنا أنّ ذلــك جاء في أفصــح الكلام، وهو القــرآن الكريم، إذ قال: "ومثله في الاتســاع قوله عــزّ وجلّ {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً}[٥٢]".

فالناظــر في هــذه الآية يجــد في الوهلة الأُولى أنّ المعنــى الحرفي المنجــز تمثّل في أنّ القــرآن الكريم شبّه الكافرين بالذي ينعق بما لا يسمع، ولا يعقلُ شــيئًا. ولم يرتضِ ســيبويه هذا التصوُّر للمعنى، إذ فطن أنّ بناء هذه الآية على هذا النحو به حاجة إلى اســتبطان فكــرٍ لمــا أُضمِــرَ في جنبــات الكلام لاســتجلاء معنى آخر يقبله العقــلُ والقلبُ، فقال "فلم يُشــبَّهُوا بمــا ينعقُ، وإنّما شُــبِّهوا بالمنعوق به. وإنّما المعنــى: مثلُكُم ومَثلُ الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به الذي لا يسمع. ولكنّه جاء على سعة الكلام والإيجاز لعلم المخاطب بالمعنى[٥٣]".

فقد بيَّن لنا سيبويه في هذا التفسير أنّ الكافرين شُــبِّهوا بالمنعوق به وهي الغنم، وشُــبِّهَ المؤمنون بالناعق، وهــو الراعي. والمعنى الذي أراده القرآن الكريم من هذا التشــبيه أنّ الكفار لم يعتقدوا بما خوطبوا به، ولم يعتنوا به أكثر من سماعه، ولذلك تجد القــرآن الكريم لم يُشــبّه الكافرين بالراعي، وإنّما شبّههم بالمنعوق به[٥٤] لِما بينهم من وَحْدَة خلاء الذهن من إدراك الأشياء.

جاء في تفســير الطبري: "وقد يحتمل أن يكون المعنــى على هــذا التأويل ومَثَــلُ الذيــن كفروا في قلّــة فهمهم عن الله ورســوله، كمثــلِ المنعوق به مــن البهائم، الــذي لا يفقه من الأمــر والنهي غير الصــوت... فكذلــك الكافــر مَثَلُه في قلّــة فهمه لما يؤمر به وينهى عنه –بسوء تدبّره إيّاه وقلّة نظره وفكره فيه- مَثَلُ هذا المنعوق به فيما أُمرَ به ونُهِيَ عنه. فيكــون المعنى للمنعوق بــه، والكلام خارج على الناعق[٥٥]".

الخاتمة :

يمكن أن نخلص ممــا تقدّم في البحث إلى النتائج الآتية :

١- أثبت ســيبويه أنَّــه لا يمكن التصرُّف بالإعراب في الخطاب إلّا إذا انتظمت في سياقاتها ومقاماتها التداوليّة .

٢- يمكن القول مما تقدّم إنّ ســيبويه قد ســبق النحــاة الغربيــين بأنّه يمكــن التمييز بــين أنواع أفعــال الكلام بكونها مســتندة إلى البنيــة ، فكلَّما كانــت العلاقة بــين البنية والوظيفــة غير مباشرة نحصل منها على فعْلٍ كلاميّ غير مباشر

٣- ولهذا يعد سيبويه أوّل مَنْ وضع ما يمكن أن نســمّيه تداولية الاتساع، والتجوُّز، وقد جعل هذه التداوليــة ركنًا أساســيًا اعتمده في تفســير الكلام وتوجيه معناه.

(٥١) شرح كتاب سيبويه: ٢/١٠٦.

(٥٢) سورة البقرة، الآية: ١٧١.

(٥٣) الكتاب: ١/٢١٢.

(٥٤) يُنظر: شرح كتاب سيبويه: ٢/١٠٧.

(٥٥) تفسير الطبري: ٣/٣١١.

٤- لم تفتْ نباهة الشيخ على طول الكتاب وعرضه أنْ يذكر أنّ للعلاقة بين المتكلم والمخاطب ، والمعرفة اللغويّة وغير اللغويّة المشتركة بينهما أثرًا في بناء الخطاب؛ لأنّها تُعدُّ محدِّدًا سياقيًّا له أثره في إنجاح عملية التواصل .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

- آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود أحمد نحلة، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠١١م.

- استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، عبدالهادي بن ظافر الشهري، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ٢٠٠٤م.

- الأُسس الأبستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه، إدريس مقبول، ط١، عالم الكتب الحديث، الأُردن، ٢٠٠٦م.

- الإشاريات في كتاب سيبويه، صباح عبدالهادي كاظم، بحث منشور في مجلة كلية التربية الأساسية – الجامعة المستنصرية، العدد(٩٧)، مج(٢٣)، ٢٠١٧م.

- الاقتضاء وانسجام الخطاب، ريم البهامي، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ٢٠١٣م.

- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور التونسي (ت١٣٦٣هـ)، د.ط، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

- التوسّع في كتاب سيبويه، علي هادي حمادي العبيدي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٤م.

- التكوثر العقلي، طه عبدالرحمن، ط١، المركز الثقافيّ العربيّ، بيروت، ١٩٩٨م.

- جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

_ دراسة الأفعال الكلامية في القرآن الكريم، مقاربة تداولية، بوقرومة حكيمة، مجلة الخطاب، منشورات مخبر تحليل الخطاب، العدد(٣)، ماي ٢٠٠٨م.

_ ديوان العجاج، برواية الأصمعي(ت ٢١٦ هـ)، تحقيق عبد الحفيظ السّطلي، مكتبة أطلسن دمشق ١٩٧١ م .

_ زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت٥٩٧هـ)، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، ط١، دارا لكتاب العربي، بيروت، ١٤٢٢هـ.

_ شرح كتاب سيبويه، أبو سعيد السيرافي (ت٣٦٨هـ)، تحقيق: أحمد حسن مهدي وعلي سيد علي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٨م.

_ الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي (ت٧٤٥)، ط١، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٣.

_ العقل واللغة والمجتمع، جون أوستين، ترجمة: سعيد الغانمي، ط١، المركز الثقافيّ العربيّ، المغرب، ٢٠٠٨م.

_ الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، تحقيق لجنة، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

_ معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي)، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت٥١٠هـ)، تحقيق: محمد عبدالله النمر، ط٤، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

_ نظرية أفعال الكلام العامة، جون أوستين، ترجمة: عبدالقادر قنيتي، د.ط، دار أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠٠٨م.